الآداب
المجلد: 23، العدد: 01، ديسمبر 2023
الصفحات: 103 – 118
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

كتابة المقدس في رواية "خاتم" لرجاء عالم

The Writing of the Sacred in "Khatam's" Novel by Raja'a Alim

د. دليلة زغودي [1]

[1] المركز الجامعي مغنية – الجزائر. dalila.zeghoudi@cumaghnia.dz

تاريخ الإرسال: 2023/06/25 تاريخ القبول: 2023/11/30 تاريخ النشر: 2023/12/15

ملخص:

تطرق هذه الدراسة مطافات المقدّس التي تتقراها كتابة "رجاء عالم" في رواية "خاتم"، وتطوف بمساعيها المفضية –على تشعّب– إلى الغاية ذاتها؛ إلى حيث يستقر الحرم المكّي مرسلا طاقته وفاعليته المفارقة تحوط كل محيط بهالتها القدسية. فللمقدس إيقاع كمين يجتذب إليه توق الكتابة لاستشعار الكمال السليب من الوجود الدنيوي المحدود. ويستميل حرف كاتبة تشربت قيمه حد الطفح، وفاضت به كتابة وحبكا لمتخيل سردي؛ سرت في لغته طاقة المقدس إيحاء يلاحق ذاك المفارق اللا مسمى المغدق بقرائنه السخية على الفضاء، ويحيك منه نسيجه للمتجاوز. تلهج به رجاء عالم إشارة تشق اللغة شهقة تعلو بها صوب المتسامق السماوي، وتحمّلها شيئا من روح المجاوزة والإزاحة.

كلمات مفتاحية: *الكتابة؛ المقدس؛ الحرم؛ الاستعارة؛ رجاء عالم.*

Abstract:

This study examines the paths of sacred that Raja'a Alim follows in "Khatam's" novel and explores its endeavours that lead -in many ways- to the same end, where the Holy Mosque of Mecca resides, sending its paradoxical energy and effectiveness, surrounding all the environment with its sacred aura. The sacred has a latent rhythm that attracts the yearning for writing to sense the perfection robbed of the limited earthly existence. It appeals to a writer who was saturated with the value of the limit of rashness and overflowed by writing and knitting a narrative imagination. In his language, I walked the sacred energy of an indication that followed that unnamed dichotomy of his generous evidence on space and weaves the fabric of the transcendent from it. Raja'a Alem invokes it as a sign that splits the language, such as a gasp, which rises towards the heavenly transcendent and carries with it some spirit of permeation.

Keywords: *Writing; holy; campus; metaphor; Raja'a Alim.*

المؤلف المراسل: دليلة زغودي.

"العروج نحو المتعالي ليس إلا نزوعا نحو الحرية التي تضيق عليها العبارة ولا ينجيها من أصفاد الظاهر إلا براعة الاستعارة" –أميرة الزين–

مقدمة:

يسفر المقدّس عن نفسه في الوجود على هيئة شيء "«مغاير»، واقعة لا تنتمي إلى عالمنا، في أشياء تشكّل جزء من عالمنا «الطبيعي» و«الدنيوي»"[1]، ويشير، في استعصائه وتمنعه، إلى الآخر المختلف جذريا؛ «الآخر المطلق» الذي لا يمكن إدراكه ويكتفى بمطاردة ظلاله في أفق الوجود المتاح للبشر. والمقدس إذ يشع بطاقة فعالة مخوّلة بالخلق والعطاء اللامتناهي، فإن الكتابة تنهل، وهي تقترب من شعافه السَّنية، من ذلك المعين ما يؤهلها لاقتحام تجربة الخلق؛ خلق يغترف من اللامحدود وينشئ، ويرى إلى اللامرئي فيبصر، ويرهف السمع فيما وراء المسموع، يصيخ ويتلقى الأصوات، والإيقاعات الخفية ويستجيب لها ويرجّعها.

يبدو فعل الكتابة عند رجاء عالم طقسا ابتهاليا تتبتّل في محرابه، وترفع تراتيلها صلوات إلى سماء الحرم، كتابة يطفر منها المقدس شوقا، وتنضح به توقا كمينا يسري في كيانها لبلوغ شهقة المفارق، الذي لا يؤتى حرفا وحسّا، وإنما تومض به أطراف الكلمات إيماء وتشهق به مجازا واستعارة، ويعرج باللغة "من الحرف ومفضوح العبارة إلى الرمز والمجاز والاستعارة"[2] ضمن طقسية باروكية تلتوي باللغة وتدور بها في مساقات لولبية ثم تهوي بها في محاريب الصلاة؛ لكأنها تؤدي طقوس المقدس كتابة، إذ لا غنى للكتابة المشرئبة نحو المقدس "من وثبة جمالية مواكبة للوثبة وراء تخوم المعرفة الموضوعية، وثبة أملاها العشق، يعلو بها العاشق المتحرر من عبودية الحرف نحو ذلك "الوجود الممكن"[3].

أو لكأنما هي في بحث محموم عن مقدّس متوار فيما وراء المقدسات العينية التي تهوي إليها حركات الناس وتتنزّل عندها أفئدتهم، كتابة تجمح في العلاقة الروحانية بالقدسي وتشق لها داخل المسالك المخطّطة متاهتها الخاصة[4]، هي"تجربة بحث وحركة موجهة نحو نقطة دائمة الاحتجاب تعد أصل الكتابة"[5]، تتلمس آثار الغياب في كثافة الحضور فتعزز الرغبة في التمسك بالغياب، بالفقدان وبالنقص المتأصل في الذات وفي الآخر[6] لـ"تكون الكتابة مصابة بعدوى المستحيل وبصرخة العبور"[7] تنشئ، وهي

تستضيف المقدس في حرفها، حرما ينأى ويتطوّح في سُدُمِ الأليغورية معوّلا على كثافة اللغة وخصوبتها في التكاثر، وعلى نثر خلبي يلتوي بها أثناء عروجها نحو اللانهائي لاستراق خطفة برقية من وميضه المُعْشِي.

1. استدارة المقدس ومنعطف الكتابة:

تنجذب حركة الكتابة في "خاتم" إلى الحركة المستحكمة في كلّ حيّ داخل المدينة المقدسة، بل حتى في جماداتها، مستجيبة لنداء الاكتمال في الدائرة المقدّسة التي تلولب حولها كل ساع، وتراود الحرف عن "مجاسدة المستحيل"[8] فيهوي إلى مدارها كأنه من طواف جُبِل، لكأنها "لا تكتب عن شيء بل تنكتب مع شيء. ليست صورته، بل أثره، في انفلات الحدود بين الداخل والخارج"[9] منسلبة إلى سر الدائرة؛ إلى بوتقة "الاكتمال الأولي المطلق قبل أن ينحل إلى مظاهر الكون المختلفة"[10] أين يفيء الشقّ إلى شقه ويجتمعان في وحدة المدار المكتمل، فيلتئم شمل «خاتم» المشروخ في حيرته بين جنسين، ويكتمل في تماهيه مع دائرة الطواف منساقا إلى تثنّ وتكسر كامنين في جذر الخنث* الذي قدّت منه، وهو يعيد خاتم إلى الأصل "الإنساني باعتباره جنسا خنثويا أو أندروجينيا منه اشتق النوعان الذكر والأنثى"[11].

إنها تنكتب مشدودة إلى مركز استدارة؛ حيث "تنتهي الكتابة لتبدأ ولا تبدأ لتنتهي"[12] تدور حوله بمجازات الاستعارة وتلتف عليه بتحويرات البيان؛ مسايرة" حركة الأجساد التي تدخل الحرم بحذر وتساعدها للانزلاق للداخل حركة الأبواب المواربة مع حركة جهات الأرض الأربع، تنساق الأجساد لدائرة الطواف، وحين يخامرها الحرّ على حافة ذاك الدوران يقترب جسد نحيل في ثوب أبيض يهتف بالداخل:

"مطوف يا حاج؟" ولا يمهله للإجابة، يدخل به في الطقس، يضع جبته السوداء، يرتفع صوته بالموشح الأعتق من الخلق:

"باسم الله والله أكبر...اللهم ..."

ينزلق به للحركة الدائرية، يردد الداخل مسلوبا خلفه (اللهم)... وتتضخم دائرة الطواف تتضخم الحركة وتدور بالحرم. يتكرر ذلك المشهد"[13]. في حركة تحترف العود وتدمن التكرار، مغفلة منطق الانقطاع والتراكم المحموم، تستعيد في التفافها أطياف من مرّوا من هنا فشقوا بآثارهم منعطفات المطاف، وشخصت بصماتُهم معا لمَ على السبيل.

إن المدار المفتوح على طقسية الطواف الشعائرية ليعطف نحوه كل حركة، يسلك في سر دورانيته الكلي، الأجزاء جميعا، فلا يشذ فرد عن حشده ولا ينحرف كائن عن مسار انحنائه "خشية من قلق التفكك يلوذ (...) بالرغبة الجماعية للانضواء تحت هيمنة المقدس والمتعالي"[14] فيما يشبه الدوار المستبدّ بجسد الدرويش الراقص في جذبته وانخطافه إلى مركز الحق؛ "في ليالي شتاءات مكة تصعد كل الرياح القارسة لرؤوس الجبال، وتبدأ تطوف في دائرة كبيرة حول الحرم في الأسفل يصبح المطاف بحجم الجبال المطوّقة للبيت الحرام ويدخل دائرته كل وحش وأهلي في تلك الذي تأخذ تطوف كل الهوام والدواب والوحش والجن والإنس، كل غرائب الجبل تطوف وتشطح يغدو السائرون في الدروب المنحدرة في سكر وترفعهم دائرة الطواف[15]".

2. إيقاع المقدس: لحن الاكتمال:

يَنْظِمُ صوتُ المقدس وإيقاعُه جسدَ المدينة المقدسة ويلفّ كل ما حولها بغلاف موسيقي؛ إيقاعات تنبعث كدوّامة من مركز الكون ذاك الملفّع بهسيس حروف الآيات، وتتسع باتساع ما يحوطها من أرض وجبال؛ حلقات تدفع الحيّ والجماد إلى الاندماج في نغمها والالتفاف بدارتها، ويتلقطها جسد "خاتم"، يستضيفها في قراره المبهم الكلي، فيبثها عودُها دوائر إيقاعية متصلة كاملة كمال مدار الطواف الذي يصدر عنه "حفيف".

تملأ طاقة المقدس الكاملة غير القابلة للتمفصل والتجزيء خاتم، تتلبسها وتحوّل انتشاءها إلى لحن مكتمل؛ "«من أين تشرب الموسيقى؟» أمسكها توق أن تشرب، هناك حيث الكمال يتدلل على شفتيها يمنح رشفة من هنا وظمأ من هناك يرسل خيالاته لجسدها الرهيف فيتطوح، يمنع حتى تتثاقل حركتها فلا يعود يمشي تحت قدميها الطريق، اعتراها توق أن تشرب أيقنت أن موسيقاها تريد أن تخرج بجسدها المخفي من مكمنه وتكتمل أيقنت أن جسد موسيقاها يشرب الهنا ويتوارى وراء حجاب، أرادت أن تقشع ذاك الحجاب، فكرت أن حواسها أحجبة، البصر والذوق والشم ديدبان يمنع عن ذلك النبع، يمنع جسدها من اللحاق بموسيقاه لما وراء الحجاب"[16].

إن السمع "حاسة الزمان"[17]، وهي أول حاسة تشق الجسد والحاسة الأخيرة التي ترافقه إلى القبر، هي الحاسة المؤهلة لاحتضان اكتمال المقدس، لوصل ما انقطع مع الأصل يرجعه عود خاتم؛ الابنة

العوادة[18] بما يحمله الأصل اللغوي للعود- المجذوذ من جذر "عَوَدَ"- من دلالات العودة والرجوع[19] إلى البدايات الخالصة البريئة؛ على حسيس الحاسة الأولية الخام المشدودة إلى المصدر الأول بلا وسائط- قلبا لقلب؛" انسلبت زرياب لسلاسة أصابع خاتم على الأوتار، للمعرفة القديمة بين الجسد والجسد، استغرقت في نغم نقلها مع خاتم للشعور بأن كلّ (كذا) منهما غُفْل، معجونة بحداثة وبراءة لا يضاهيها بدء"[20] فآلة العود تحمل الرّجع والانثناء في حرف انحناء عودها المقدود من شجر، وتعطفه على حرف لغوي يضم الأوب إلى التكرار.

وجسد خاتم الذي أوصد عن سبر العلامات بابه، وجد في النغم مفتاحه؛ تتخلل وحدتَه المؤتلفة حدودُ الإيقاع وتترجَّع في جنباته المنطوية على داخل ملتحم إذ "صارت خاتم مسكونة بمقطوعات تعزف في الكون حولها، تشارك فيها المدينة بأسرها، إيقاعات تصعد لتجتمع على الجبل، تطوف هناك مثل حلقة حُرمة إيقاع ينقل الطواف لذروة لا يتلقطها/ لا يتلقاها غير جسد خاتم «حلقة الإيقاع أنا» تنحني على عودها وتهمس ذاك الكامل الذي يأخذ يطرب بتنويعات، ووصلات استمرار"[21].

تخلق خاتم العالم ألحانا تتلقى إيقاعات الموجودات وتنزلها على عودها ألحانا تسري فيها حركة المقدس إيقاعا دورانيا كأنما هي في حلقة طواف شعائري، إيقاع كمين في كل الموجودات ولكن لا يتلقطه إلا جسد (خاتم) "**مثل قصبة**"[22] ناي من ماء نمت، تتلقى الأرواح وترجّع حكايا الأصل القدسي المشتق من لفظ السماع في تجويفها الأسطواني أصداء وتستخلصها لحونا؛ "بالحرف—الصوت الذي يوجد في اشتقاق اسم إسماعيل أي الإله يسمع"[23].

إنه تصاد مع المقدس في أوليته البكر، عود على البدء وتجاوب مع إيقاعه الخفي في معزوفة الكون المجاور. في ثقافة أمّة محكومة بالسماع؛ تنحت نسبها من جذر انبثق من سماع الله لشكوى الجارية هاجر ومنْحِها إسماعيل في شكل هبة؛ "وَقَالَ لهَا مَلاكُ الرَبِّ: هَا أَنْتِ حُبْلَى فَتَلِدِينَ ابْنًا تَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ لِأَنَّ الرَبَّ قَدْ **سَمِعَ** لِمَذَلَّتِكِ"[24].

3. شفافية الصمت:

إذا كان الكلام فتقا فإن الصمت فعل رتق، وقطيعة المعنى التي يحدثها الكلام لا تجد لها مكانا في مقامات التواصل والكمال؛ حيث وفرة تجربة المقدس وامتلاؤها تفضح عوز الكلام وخصاصته، وحيث "امتلاء الإحساس"[25] وإتراعه يقصر عنه فراغ الكلام وقفره. فـ"طاقة المقدس قوة لا تقبل التدجين، ولا التحلل ولا التجزئة، قوة كاملة لا تجوز فيها القسمة حيثما وجدت"[26]. وفي اختبار المقدس وحدة وشفافية تبددها مسافات اللغة وتشرخها قطيعة الكلام، وفي" إتمام السرّ إدراك الوحدة، أي الشركة والاتحاد"[27]، وديدن اللغة في تسمية الأشياء ودأبها في التحديد والتقطيع يحول دون بلوغها مقامات المطلق القصي الذي لا تحيط به الأسماء.

"كانت واقفة في صحن البيت الحرام حين لحق بها، وقف خلفها بصمت يتأمل في غيبتها كانت منسلبة بكليتها للأذان، صوت المؤذن الساحر يطلع من الرخام تحت قدميها، يصعد جسدها ينتشر على وجنتيها من النور حولها يهبّ في الهواء ويلفح صدغيها كانت منتصبة مثل قصبة تتلقى بجسدها تلك النغمات وترسل جوابها حرم من موسيقى امتد حولها وفصل عنها هلال والآخرين الداخلين والخارجين من المطاف"[28].

إن قدسية الحرم تضرب حول الثرثرة نطاقها مفسحة المجال لامتلاء المعنى أن يفيض ويسترسل. ففي امتحان الدهشة بذلك "الوجود" المفارق، يتراجع المشترك العقلي ويتخلف، فيما يتصدر الحسّ متلقطا ذبذبات المتعالي ويتقدم. وينغمس في نشوة تختزن الزمن في ذاتها. إنه نوع من تلاشي الزمنية الإنسانية المنقطعة، في ظل اكتساح زمنية الثبات الأزلية التي تسمر الحيّ عند برزخ بيني يتنقل بين أبد وأزل "فهي دارة تنقل الأبد إلى الأزل والأزل إلى الأبد"[29].

4. معمودية الماء المقدس:

إن خاتم (الخنثى) التي قرر لها والدها الذّكورة في المناسبات الدينية عند إقامة الصلوات وتأدية الطقوس الجادة، وترك للأنوثة فيها نصيبها من الأفراح والأعراس لم تعمّد لجنس، وظلت معلّقة بين جديّة الطقس وبهجة الاحتفال، دخلت الحرم المقدس إنسانا ثنويا؛ يجمع بين التذكير والتأنيث؛ "خاتم إنسان(...) نقلوه لجسد لا هو بالذكر ولا بالأنثى، في الأفراح والولائم أنثى وفي الصلوات ذكر"[30]. لكن

ثياب الذكر وحدها أهّلتها للحظوة بطقس الدخول والتكريس بالمعمودية، فقد تعمدت خاتم بماء زمزم – البئر المقدسة التي تضمر خلف أصولها الأبوية؛ (الإبراهيمية –الإسماعيلية) المعلنة، أصلا أنثويا منسيا؛ تمثله «هاجر» (الأم المنفية): "تحت القبة الخضراء وقفت خاتم بكامل ثياب الذكر تغتسل بالماء المقدس، يرفع سند من الدلاء الطالعة تفور من البئر ويسكب على وجهيهما وصدريهما، جداول من نشوة سرت من الماء اللبني على نحول الجسد الشاحب ومتانة الآخر الأبنوسي، كما الجسد وظله أو كما الجسد وروحه التقى الجسدان وانفصلا تحت المذاق العكر ممزوجين بملوحة على لبن، ماء للغسل من الهمّ والمرض، سالت اللذة المشوبة بالشفاء على الصدرين الفتيين، لذعتها تتجدد مباغتة مع كل دلو يطلع مزبدا من البئر المقدسة(...) اتسعت مساحة من استجابة على الرؤوس: «نقني من خطاياي كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس» «واغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد.. » تلقفت ملائكة زمزم الدعوات فائرة لبيت الله، وحين ارتفع صوت الخطيب أسرع سند وفي إثره خاتم يقطران للصحن، أبخرة المقدس تطفر من جسديهما كلما تقدما خطوة في صهد مكة، جنبا إلى جنب تحت شمس خطبة الجمعة"[31].

وعلى غرار زمزم، التي ضُمَّت إلى رموز المقدس الأبوية، رغم مادتها الأنثوية* فإن خاتم التي كانت ترتدي ثياب الذكر كما شاء لها والدها، ووفق ما تقتضيه أعراف المدينة المقدسة في قرون خلت؛ من خصّ الذكورة بطقسية المناسبات الدينية، إنما كانت تبطّن جوهرا أنثويا ينفذ من صرامة المقدس وتجهّمه إلى روحه الأنثوية المرحة والبهيجة.

وبصلاة خاتم [مزدوجة الجنس] في الحرم، وتردّدها على حلقات العلم في أروقته وتنقلها الحرّ في جنباته، تكون بقاع المقدس قد استعادت ازدواجيتها الأصلية، ونضّت عنها احتكار المذكر. وهي توزع القدسية ما بين بيت مشيد (إبراهيم وإسماعيل) وبئر متدفقة فائرة (هاجر).

كما أن خاتم التي كانت تصيخ بسمعها إلى إيقاع المقدس وموسيقاه، وتنهل منه ألحانا لعودها، وترجّع ترانيم المقدس بجسدها المشدود كعود على وتر النغم، إنما تصيخ للمرح الديونيزوسي البهيج الذي حجب، ومنع عن مرابع المقدس بعد أن استولت عليها صرامة المتجهم واحتكره جِدُّه.

إذا كانت طقوس العبور والتأهيل للدخول في الجماعة المسلمة لدى المسلمين تتم بالختان بالنسبة للذكور[32]؛ بعلامة العهد المدماة، الذي يميز الأضداد جنسيا ويفصل المذكر عن المؤنث[33]. ويوجه جسد

المسلم لمجابهة عمى العلامات[34]، فإن خاتم الخنثى اكتفت بطقس تطهيري، لدى خروجها الأول إلى الحرم لتأدية صلاة الجمعة جماعة في هيئة الذكر، شرعت فيه والدتها في بيت العائلة استعدادا لتقبل هيئة الذكورة للمرة الأولى، "في حمام الطابق الأول وعلى قيد أذرع من البركة انفردت سكينة بخاتم، وحدها تباشر غسلها كل جمعة [...].

حفنة من ماء الورد وأصابع سكينة تنسكب بطول جسد خاتم، تمرّر سكينة يدها على تضاريس ذاك الجسد الشمعي، تتمم على ملامحه المسنونة مثل صعقة بهاء، تسري من لوح الكتف للوح الحوض وتتوقف هناك فلا تهبط، ثم تصعد من راحة الركبة لراحة البطن ولا تتوغل للمغابن، مثل صلاة استسقاء لا تتوغل لقلب الغيمة، تتحاشى المواجهة مع جنس ذلك الكائن من شمع[...] جمر بمصطكا يتخلل ما لم تتخلله يد الأم، يحصّن العضو المتكتم على هويته"[35]. هي طقوس طهارة جمعت بين عنصري الماء والنار –الماء والبخور– حيث ينخرط عنصر النار أيضا في رمزية الفصل (القطع والطهارة والختان) ويرتبط من حيث خاصية النور "بالنظام النهاري للصورة"[36] المبدّد للفوضى والعماء والسديم. وتم التعميد بمياه زمزم في الحرم. الماء وحده برمزيته الموحدة[37]، لا الدّم كان معبر خاتم صوب لملمة شقَّيْها ولحمهما بجسد الجماعة المسلمة في تكتم وسرية.

5. تهجية الآيات: سماع المقدّس

تحاول الكتابة ان تجذب المقدس إلى حرفها كاشفة عن سريان الحسّ في جسد الكتابة المتطلعة إلى المفارق في تعاليه، عن دبيب المقدس وهو ينفذ في الأجساد ويلجها جاريا فيها بقيم السيولة ماءً من بئر زمزم؛ تنبسط عبره معاني الارتواء، وتستثار مناخات الانتشاء المتصلة بعنصر حيّ لم يَحِد منبثقُه الأولُ عن حَدِّ الجسد الصادع بأمر ربه، متعهدا بقهر الظمأ وردّه عن كل مستعصم صادٍ لاذ بجواره، وعن محيط بيت الله الحرام المطّوق بالصحارى ببَرَكة الأَمَةِ الهائمة وابنها الطّريد (هاجر وابنها إسماعيل) تنفيذا لأمر سماوي ؛ "استوقفها الزمزمي اليمني ، صب من دورقه في الطاسة النحاس المشغولة بآية الكرسي، شربة لطرد الفزع والشتات والتعب، شربت وألقت لليمني بقروش، أخذها وعاد يملأ لها الطاسة ، بيدها طاسة الآيات والماء المقدس سرت فيها طاقة غريبة، ريانة التفتت تلقي بنظرة أخيرة للمطاف والحفيف الطالع من أجساد الطائفين"[38].إن الشرط الجسدي المتصل بتفجر هذه العين على عين هاجر وابنها المتروكين في القفر قد اجتمع بجسد حروف الآيات القدسية وغمرها في كلّ يضم أثر محمد (ص) إلى ميراث أبيه

إبراهيم وأمه الأولى هاجر؛ إنه مقام ارتواء يكرس مبدأ السيولة الجاري في أعماق مدينة الله بتعميم القدسية من عهد أمنا هاجر حيث "السيولة مبدئيا لغة، واللغة يجب أن تنتفخ بالماء"[39].

"وقفت وسط الصحن أمام قبة بئر زمزم، بظهرها للبئر احتوتها خضرة القبة، وقفت تواجه سواد ثوب الكعبة المسكون بتمتمات الآيات فغام ما عداها، صارت تجمع من تلك اللغات وتحفظ لعودها، لساعات هناك تسمرت بقلبها لصحن الطواف، كان المشهد أمامها كما لو أنه يرتسم لعينيها لأول مرّة"[40] تستوحي لغة الكتابة قيم الماء في الجريان بالخبر الساري في عطش السؤال والحيرة بالرواية والارتواء، وتسترجع حكايا البئر العتيقة والبنيان "المقام" من عهد الجد الأول: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ **السَّمِيعُ** العَلِيمُ) [البقرة: 127]. تستجمع خاتم الأطراف القصية للأرشيف المقدس؛ من انبجاس البدء حتى الوصول ضمن حلقات الزمن المتسلسلة، وتعيد اكتشاف الآن -سماعا- على هسيس ما كان بكل اللغات التي تقاطعت على أرض هذا الحرم المنتصب، تستردها وترددها عودا على البدء. إذ "للماء أيضا أصوات غير مباشرة [...] الماء من بين العناصر كلها، أصدق «مرآة للأصوات»"[41].

6. الجسد والمقدس:

تخترق كتابة المقدس في رواية "خاتم" الجسد، وتمرّ، عبره، تدخل مساماته، وترد على اللغة أنطلوجيتها اللصيقة بالبدن؛ إذ تتخذ من رتم التنفس إيقاعا؛ تمثّل فيه كتابة موقّعة (رتمية) نوعا من اللجوء البدني إلى المكان الأصل؛ إلى الأحشاء الأمومية أو جسد –الأم[42]. تنهض فيه الكتابة بلغة الغائب- حسب فرويد-، وتكون بديلا عن الجسد الأمومي الذي لا ينقطع الحنين إليه[43].

فبما أن الإيقاع البدني يسبق التفكير ويتقدم على التجربة فإن الكتابة تسترجع زمنية سابقة على الولادة[44] تتردد فيها أصداء مبهمة لا تبين في وضوح اللغة، وتذر جسد "خاتم" خامة طبيعية لا تجد الرمزيات الثقافية سبيلا إليه، قد انغلق في وجه العلامات وصدف عن التحول إلى نص قابل للقراءة. تتوسّل في أحد مواقف الحيرة قائلة؛ "قل للكلمة لا تنفجر، كلمة واحدة/ كلمة طائشة (...) كلمة تبلغ أبي كفيلة بإطلاق المِفَارِقِ صوبي لتمزقني، كفيلة بقفل الأبواب وتركي (...) خارج جسدي هذا الكلي، كلمة واحدة كفيلة بشطري نصفين"[45].

وطاقة المقدس إذ تنتشر وتسري عدواها في كل ما يحيط بالبيت العتيق من حيّ وجماد، ضمن أفق رؤية ترى في الكون كله مجلى للمقدس، فإن الجسد المجاور يستبطن طاقته وينتقل بفعل المضاهاة والإسقاط إلى المطابقة، يتحوّل إلى كون صغير تتجاوب أعضاؤه ونشاطاته مع مظاهر الكون وعناصره[46]، وجسد خاتم بقي كاملا كمال شكل الدائرة الضاربة في القداسة، لا ينشطر ولا يلحقه نقص، فهي لم تبلغ حدّ البلوغ الفاصل بين ذكورة وأنوثة[47]، فلم تثلم نرجسية جسدها الطفولية ولا اختبر التقطيع إلى أجزاء، مخالفا بذلك منطقا يمليه اقتصاد الجسد؛ يقايض اللحم بالرمز ويعتدّ الحرمان شرط الاكتساب، ويسدد النقصان جزية عن الهبة[48]. فخاتم لم تقدّم من جسدها جزء من لحمها قربانا في طقسية ختان، ولا شقّ دم الطمث سبيلا إلى شطرها الأنثوي الذي نضج وتأهب للحبل بالموسيقى فقط، يستجمع جسدها أصوات المقدس المتصادية عبر الأزمان ويرجّعها ألحانا كقصبة ناي تهتز لأرواح القدسي وتفتح مغاليقها لاختراق الأثير حصرا؛ "دوما كانت الدار تترقب بلوغ خاتم، طمثها، ووحدها سكينة كانت ترى كيف ينضج جسد خاتم بالنغم، ينضج بطريقته الخاصة، لا بسيل دم وإنما بسيل عود وأغنية"[49].

ثم إن الجسد المجبول من سماع لينتشي بخفيف دوائر الطواف- وهي تحفّ مركز الكون ذاك؛ فتلتصق به وتلبي داعيه للدوران، ثم تتسع حلقاتها كيما تسع المدينة المقدسة كلها وتشمل جبالها -ليصبح في غمرة الالتفاف المسْكِرَةِ محورا للطواف؛ في تنقل بين مركز الحق ودارة الخلق[50] تتلمس خاتم مركز الحق داخلها فتدور حوله "تحبل الحركة الدائرية تدور وتضيق وتصعد، الكون يدور حول خاتم ويصعد في ذاك المسطور اللولبي، غابت في وقفتها تضمر لأغنيتها من ذاك الكمال واقفة من فتنة واقفة من فزع استبطنت ذاك الكمال، كلما تقدم الوقت صار جسدها المطاف صارت لتلك الحركة الدائرية التي تأخذ تحبل بالكون وتحبل..."[51].

إن حبسة خاتم حيال وضعها الجندري الملتبس وعقدة علوقها فيما بين النوعين لا تنفرط وتتكشف إلا داخل حرم المسجد المهجور، أين يعيش الكيان المزدوج لخاتم تساكن الأضداد ويلمّ شمل التعدد ببراءة أولى خالصة من تبجح الانحياز، يتساوى -في كنفها- النوعان ويتكامل الجنسان دون تفاضل، تعيد لتاريخ المقدس ثنويته الأصلية الخالصة من شوب الإقصاء من الميراث الذكوري المتواتر، وهي تقرن الصلوات على الأنبياء بالصلاة على الأمهات الأوليّات، وتغلق الدارة على اكتمال إنسان بأصل جنسي

مزدوج لا ترهنه أعضاء مخصوصة؛ "استرجعت الحكايا التي تطوف حول هذا الحرم المهجور، الرجل الصالح من زمن نوح يطلع في ختام كل صلاة بالبيت الحرام يؤم غرقى الطوفان في إقامة الصلاة على الميت الغائب أي ميت؟ من تلقائه مال رأسها أسند جبهتها لقلب المحراب، وجاءها همس الريح في حجارة المحراب «صلوا على أبينا نوح صلوا على أبينا آدم.. » أسندت شفتيها لحجارة المحراب وهمست:

«صلوا على أمنا حواء... » وجاوبتها الريح تهمس:

«صلوا على أبينا نوح صلوا على أبينا آدم..» وفاحت روائح الماء المشبع بالأرواح من عهد قديم، نحت برأسها من همس المحراب"[52].

وقد يكون في اسم خاتم ما يدل على الختم والإغلاق؛ فهي مختومة لم تثلم كرجل ولا كامرأة.. استجمعت الجنسين النقيضين ولم تتخللها فرجات تنفتح على آخر؛ لكأنما هي "عشتار في طورها الأوروبوري البدئي"[53] اكتملت وانغلقت بعد لأم الضدين؛ ذكورة وأنوثة، وانحرف بها حيادها الجنسي صوب الاكتمال، وقام جسدها في، برزخيته بين الجنسين، قيام المقدس برزخا بين السماوي والأرضي .وقد ولدت بعد خمس توائم ضمّ كل توأم منها ذكرا وأنثى؛ فأمها "في كل بطن كانت تحمل بذكر وأنثى، حتى تمام الخمس توائم، وكلما بلغ لها تؤام اجتاحت مكة حرب أو وباء وأخذت الذكر وتركت الأنثى"[54] وكانت هي من ختمت على رحم أمها بجنسها المزدوج المتكتل "حيث انقطع سيل التوائم فجاء مولود فرداني"[55]. إثر طلق متعسر لفظت الأم رحمها أثناءه؛ "الوليد حين أطل كان خاتمة الولادات (...) مثل يراعة راقبته سكينة وعرفت فيه خاتمة الصراع لإحياء الذكر، عرفت سكينة تلك الحقيقة في نار سرت وسملت بطانة حوضها المتهتك"[56].

يحتاج كل بدء إلى نقص يتخذ هيئة "فتح" ينشُد فيه الخواءُ الامتلاءَ، ويطلب منه الافتقارُ الاكتمالَ؛ وخاتم عرفت النهاية قبل أن تبدأ؛ إذ أن جسدها الذي لم يقسّط الفقدان في سداد ضريبة البقاء، قدّم وجوده مجموعا جزية اكتمال. لـ"يرتد به تمامه إلى زواله، ويعود به اكتماله إلى فنائه"[57]، وكما أفنى رحمَ الأم وهو يشق سبيله نحو الحياة في مشهدية إهدار وسفح لعنصر الحياة وتخريب لمحضنها الأول في "ذاك المخاض الذي لم تشهد الدار مثله من قبل، دم مقطوع وبالغ الحيوية، دم لا يتجلط للهواء

ويستمر يجري ، كادت تفرغ جذور النفساء من عقيقها"[58]، فإن جسد خاتم شهد أفوله دفعة واحدة؛ "سقط هلال وخاتم في طلقة وجوابها وانفجر الإيقاع في كمال وحشي"[59] في مشهدية دموية مشابهة خضّبت حمرتها محيط الحرم؛ "من الأعلى بدا الجبل والبيت الحرام بحر حمرة يطوف بقلب فحمة"[60]، ففي كل أحوال مكة لم ين الحرم القدسي يستدرج الحركة في محيطه للسلوك في مدارات الطواف الشعائرية، مسلما نهاية كل دورة إلى بداية جديدة.

خاتمة:

إن الصدور عن اختبار تجربة المقدّس في ممارسة الكتابة ليقف بها على شفا الاستحالة، ويغلق عن حرفها أبواب المباشرة والإفصاح حتى لا تلقى، عن خلبيّة المجاز، محيصا؛ تجتاز به المسافة المستحيلة بين الخرس والكلام، تسترق من لا تناهي المطلق لمحة برقية خاطفة تومض بها الصور إيحاء، وتختزن الحروف أوائلها وأصولها السحيقة حدودا جسدية متكتمة؛ تسدل، دون الحقيقة، حجبها وتذر العاشق الواصب لدى الباب.

تجعلنا رجاء عالم ننتشي في التباس، ونكابد شوقها بما يليق بمقامها من غموض واستعصاء تنفذ منه اللغة التواقة، إلى ما وراء المقدس، تحفر في طبقاته المتراكمة عن أصل ملتبس الهوية تتوزعه جذور شتى وتتقاسمه لغات عدة، ازدوج بين أنوثة وذكورة؛ ازدواج هوية خاتم الجندرية والتباس الجنسين المتلابسين، في الأصل، داخلها.

الهوامش والإحالات:

[1]. مرسيا إلياد: المقدّس والدّنيوي، ت. أحمد آيت إحسان، دار الحوار، ط.01، بيروت، 2018، ص15.

[2]. أميرة الزين، الإبداع والمقدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.01، بيروت، 2016، ص.11.

[3]. نفسه، ص.26.

[4]. ينظر، محمد بنيس، كتابة المحو، دار توبقال، ط.01، الدار البيضاء، 1994، ص.22.

[5].موريس بلانشو، كتابة الفاجعة، ت. عز الدين الشنتوف، دار توبقال، ط.01، الدار البيضاء، 2018، ص.18

[6].Ghyslain Lévy, L'écrit de la voix, entre invisibilité et virtualité e quelques variations sur le thème « Aimer mais comment ?» de Jacqueline Rousseau -Dujardin, in Ecriture de soi, Sous la direction de Jean-François Chiantaretto- Catherine Matha, Hermann, PARIS ,2016 p.106.

[7]. محمد بنيس، كتابة المحو، ص.22.

[8]. أميرة الزين، الإبداع والمقدس، ص.71.

[9]. محمد بنيس، كتابة المحو، 14.

[10]. فراس السواح، لغز عشتار- الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، ط.08، دمشق، 2002ص.158.

*. الانخناث :التثني والتكسر. وخنث الرجل خنثا فهو خَنِثٌ، وتخنث والخنث: تثنى وتكسّر، والأنثى خنثة. وخنثت الشيء، فتخنث أي عطّفته فتعطف والمخنث من ذلك للينه وتكسره.

ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط.06، بيروت، 1997، المجلد الثاني ص.145.

[11]. فتحي بن سلامة، الإسلام والتحليل انفسي، ت. رجاء بن سلامة، دار الساقي ورابطة العقلانيين العرب، ط.01، بيروت، 2008، ص.3119.

[12]. محمد بنيس، كتابة المحو، ص. 13.

[13]. رجاء عالم، خاتم، المركز الثقافي العربي، ط.01، الدار البيضاء- بيروت، 2007،ص.244.

[14]. أحمد زين الدين، تعاويذ الجسد الديني-قراءة في أطواره وتمثلاته وتخيلاته، بيسان للنشر والتوزيع، ط.01، بيروت، 2020، ص.05.

[15]. رجاء عالم، خاتم، ص. 190.

[16]. المصدر نفسه، ص.245.

[17]. عبد السلام بنعبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، ط.02، الدار البيضاء، 2008، ص.07.

[18]. ينظر، رجاء عالم، خاتم. ص.126.

[19]. يورد صاحب اللسان؛ " عود: في صفات الله تعالى: المبدئ المعيد؛ قال الأزهري: بدأ الله الخلق إحياءً ثم يميتهم ثم يعيدهم أحياء كما كانوا. قال الله عز وجل: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده. وقال: إنه هو يبدئ ويعيد (...)قال الليث: العُودُ كل خشبة دقت؛ وقيل العود خشبة كل شجرة، دق أو غلظ، وقيل: هو ما جرى فيه الماء من الشجر وهو يكون للرطب واليابس، والجمع أعوادٌ وعيدانٌ... والعود ذو الأوتار الأربعة: الذي يضرب به غلب عليه أيضا؛ كذلك قال ابن جني، والجمع عيدان... والعواد: متخذ العيدان...".

ابن منظور؛ لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، المجلد.03، ص ص.315-320.

[20]. رجاء عالم، خاتم، ص.113.

[21]. المصدر نفسه، ص.219.

[22]. المصدر نفسه، ص.27.

[23]. فتحي بن سلامة، الإسلام والتحليل النفسي، ص.142.

[24]. الراهب إيفانيوس المقاري، سفر التكوين، مطبعة دار القديس انبا مقار—وادي النطرون، ط.01، القاهرة، 2012، الإصحاح السادس عشر ص.74.

[25]. دافيد لوبروتون، الصمت؛ لغة المعنى والوجود، ترجمة: فريد الزاهي، ط.01: المركز الثقافي للكتاب، ط.01، الدار البيضاء – بيروت، 2019، ص.266.

[26]. روجي كايوا، الإنسان والمقدس، ت. سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، ط.01، بيروت، 2010، ص.40.

[27]. رودولف أوتو، فكرة القدسي؛ التقصي عن العامل غير العقلاني في فكرة الإلاهي وعن علاقته بالعامل العقلاني، دار المعارف الحكمية، ط.01، 2010، ص.249.

[28]. رجاء عالم، خاتم، ص.207.

[29]. فراس السواح، لغز عشتار، ص.172.

[30]. رجاء عالم، خاتم، ص.140.

[31]. المصدر نفسه، ص ص.45-46.

*. من الأصل الأنثوي المتصل بهاجر، إلى أنثوية عنصر الماء، ناهيك عن دلالة التجويف الأرضي على الأنوثة...

[32]. عبد الوهاب بوحديبة، الإسلام والجنس، ت. هالة العوري، رياض الريّس للكتب والنشر، ط02، بيروت، 2001، ص.249.

[33]. ينظر؛ جيلبير دوران، الانثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، ت. مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.03، بيروت، 2006، ص.149.

[34]. Ahnouche. fatima :Abdelkébir khatibi ; la langue, la mémoire et le corps, l'articulation de l'imaginaire culturel, paris, l'harmattan, 2004.p.235

[35]. رجاء عالم، خاتم، ص.41-42.

[36]. جيلبير دوران، الانثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، ص.153.

[37]. ينظر؛ غاستون باشلار، شاعرية أحلام اليقظة، علم شاعرية التأملات الشاردة، ت. جورج سعد، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، ط.01، بيروت، 1991، ص.218.

[38]. رجاء عالم، خاتم، ص.208

[39]. غاستون باشلار، الماء والاحلام، دراسة عن الخيال والمادة، ت. علي نجيب إبراهيم المنظمة العربية للترجمة، ط.01، بيروت، 2007، ص.273.

[40]. رجاء عالم، خاتم، ص.244.

[41]. غاستون باشلار، الماء والاحلام، ص.274.

[42]. Ghyslain Lévy.L'écrit de la voix, in Ecriture de soi, p.33.

[43]. سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ت. جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط.04، بيروت، 1996، ص.44.

. 44. Ghyslain Lévy, L'écrit de la voix, in Ecriture de soi, p.33

[45]. رجاء عالم، خاتم، ص.243.

[46]. ينظر، مرسيا إلياد، المقدس والدنيوي، ص.160.

[47]. سيغموند فرويد، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ت. جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط.02، بيروت،1983، ص.92.

[48]. فتحي بن سلامة، الإسلام والتحليل النفسي، ص.157.

[49]. رجاء عالم، خاتم، ص. 247.

[50]. ينظر، فراس السواح، لغز عشتار، ص174.

[51]. رجاء عالم، خاتم، ص.245.

[52]. المصدر نفسه، ص.73.

[53]. فراس السواح، لغز عشتار، ص.276.

[54]. رجاء عالم، خاتم، ص.25.

[55]. المصدر نفسه، ص.26.

[56]. المصدر نفسه، ص.22.

[57]. عياشي. منذر، مقدمة ترجمة "هسهسة اللغة" لرولان بارت، مركز الإنماء القومي، ط.01، حلب، 1999، ص.10.

[58]. رجاء عالم، خاتم، ص.22

[59]. المصدر نفسه، ص.253.

[60]. المصدر نفسه، 254.

قائمة المصادر والمراجع:

1-االقرآن الكريم رواية ورش عن نافع.

المصادر:

1- ابن منظور؛ لسان العرب، دار صادر، د.ط، بيروت، د.ت

2-رجاء عالم، خاتم، المركز الثقافي العربي، ط.01، الدار البيضاء- بيروت، 2007.

المراجع بالعربية:

1-أحمد زين الدين، تعاويذ الجسد الديني-قراءة في أطواره وتمثلاته وتخيلاته، بيسان للنشر والتوزيع، ط.01، بيروت، 2020

2- أميرة الزين، الإبداع والمقدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.01، بيروت، 2016.

3- الراهب إبيفانيوس المقاري، سفر التكوين، مطبعة دار القديس انبا مقار—وادي النطرون، ط.01، القاهرة، 2012، الإصحاح السادس عشر.

4- عبد السلام بنعبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، ط.02، الدار البيضاء، 2008

5- فراس السواح، لغز عشتار- الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، ط.08، دمشق، 2002

محمد بنيس، كتابة المحو، دار توبقال، ط.01، الدار البيضاء، 1994.

6-منذر عياشي، مقدمة ترجمة "هسهسة اللغة" لرولان بارت، مركز الإنماء القومي، ط.01، حلب، 1999.

المترجمة إلى اللغة العربية:

1- جيلبير دوران، الانثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، ت. مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.03، بيروت، 2006.

2-دافيد لوبروتون، الصمت؛ لغة المعنى والوجود، ترجمة: فريد الزاهي، ط.01: المركز الثقافي للكتاب، ط.01، الدار البيضاء – بيروت، 2019.

3-روجي كايوا، الإنسان والمقدس، ت. سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، ط.01، بيروت، 2010.

4-رودولف أوتو، فكرة القدسي؛ التقصي عن العامل غير العقلاني في فكرة الإلاهي وعن علاقته بالعامل العقلاني، دار المعارف الحكمية، ط.01، 2010.

5- عبد الوهاب بوحديبة، الإسلام والجنس، ت. هالة العوري، رياض الريّس للكتب والنشر، ط02، بيروت، 2001.

6- غاستون باشلار، شاعرية أحلام اليقظة، علم شاعرية التأملات الشاردة، ت. جورج سعد، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، ط.01، بيروت، 1991.

7- غاستون باشلار، الماء والاحلام، دراسة عن الخيال والمادة، ت. علي نجيب إبراهيم المنظمة العربية للترجمة، ط.01، بيروت، 2007.

8-سيغموند فرويد، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ت. جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط.02، بيروت،1983.

9-سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ت. جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط.04، بيروت، 1996.

10-مرسيا إلياد: المقدّس والدّنيوي، ت. أحمد آيت إحسان، دار الحوار، ط.01، بيروت، 2018.

11- موريس بلانشو، كتابة الفاجعة، ت. عز الدين الشنتوف، دار توبقال، ط.01، الدار البيضاء، 2018.

المراجع الأجنبية:

1-Ahnouche. fatima :Abdelkébir khatibi ; la langue, la mémoire et le corps, l'articulation de l'imaginaire culturel, paris, l'harmattan, 2004.

2-Ghyslain Lévy, L'écrit de la voix, entre invisibilité et virtualité e quelques variations sur le thème « Aimer mais comment ?» de Jacqueline Rousseau -Dujardin, in Ecriture de soi, Sous la direction de Jean-François Chiantaretto- Catherine Matha, Hermann, PARIS ,2016.